التقادم لا يُسقط التعذيب

يتداولُ النّاسُ عبارة "**التعذيبُ لا يَسقطُ بالتقادمِ**"، ومعنى ذلك: أنّ مرور الزّمان لا يُسقِط مقاضاة المُعذِّبِ ومعاقبتِهِ. وقد تأمّلتُ هذا القول القانوني والشّرعي أو القاعدة القانونية[1]، فبَانَ لِي مَعنى في الدّين عميق، وهو أنّ التقادم بثلاثة أطوار، طَوْرٌ أوّل هو طور الخلق، وطور ثان هو طور التكليف، وطور ثالث هو طور الآخرة. وهو ما أدلل به على أنّ التقادم لا يُسْقِطُ التعذيب ولا التنكيل ولا الظلم ولا الاضطهاد...

الدّليل الأوّل:

إنّ تقادم معصية إبليس لا تُسْقِط عنه العقوبة الأخرويّة واللّعنة الدّنيويّة، ومعصيته وَقعت في طور الخلق قبل التكليف الإنساني بمُهمّة عِمارة الدّنيا، وهذه المعصية هي: عدم سجوده، وتَوعّده بإغواء بني آدم وحملهم على العذاب بناءً على ذلك، وهذا نوعٌ من التعذيب لهم، أي تعذيبهم بالتسبّب في شقاوتهم الدّنيويّة وعذابهم يوم القيامة. وهو ما يُعرف في الشرع والقانون بالتعذيب بالتسبّب لا بالمباشرة، بمعنى أنّه تسبّب في شقاوتهم وتعذيبهم. ونَستخلص من هذا التعذيب بالتسبّب، أنّ النّاس الذين يَتسبّبون في تعذيب غيرهم لا يسقط تعذيبهم بالتقادم، فهم مُؤاخذون عليه ومعاقبون به. وعلى هؤلاء الانتباه إلى خُطورة ما يَنتظرهم يوم القيامة وفي الدّنيا؛ لأنّهم كانوا سببًا للتعذيب وإن لم يُبَاشروه.

فهذا دليلٌ من العقيدة ومن الوضع الخلقي الأوّل على أنّ إبليس سينالُ جزاءَه يوم القيامة لِمَا فعله في إغوائهم من عذابات الدّنيا والآخرة، رغم أنّ هذا التعذيب قد تقادم بمليارات السّنوات، وإذا كان التقادم بهذه المُدد الزّمانيّة الطويلة جدّا لا يُسقِط التعذيب، فمِنْ باب أَوْلَى أنّ التعذيب بسنوات وعقود وحتّى قرون لا يُسقِط التعذيب أو التنكيل. (وهذا مَعدودٌ من أحكام العقيدة لا من أحكام الشّريعة).

ونَسَقُ هذا الدليل كما تَقرّر في عِلْم أُصول الفقه يَندرجُ تحت أَصْل الأَوْلَى والأَحْرى، فالتقادم الأدنى في زمانه أَوْلى بألا تَسقط معه العقوبة، من التقادم الأعلى بالأحقاب الزمانية الضخمة الطويلة... (وهذا الأصل هو من أحكام الشريعة لا من أحكام العقيدة).

وبالحُكْمين يَتقرّر وصلُ التعذيب الذي لا يَسقط بالتقادم بالعقيدة والشريعة. وهو نوعٌ من أنواع التأصيل الكلّي العالي الذي يَجدر بيانه لمجاوزة حالة الفتور في الفهم والقصور في الأداء التي آل إليها حال الاعتقاد والسلوك في زمن السّفاهة والتّفاهة.

الدليل الثاني:

إنّ تقادم أفعال المعذّبين القُدامى عبر عُصور التاريخ المختلفة، لم يُسْقِط عنهم المؤاخذة والعقوبة، سواء في دُنياهم بوعيد الله لهم وحصول ما عُذّبوا به من الزلازل والخسف.

قال الله تعالى: ﴿**فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ [العنكبوت: 40].

كما لا يسقط عنهم عذاب الآخرة بموجب ما جاء في النّصوص الشّرعيّة، ومنها قول الله تعالى: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾ [غافر: 46]، وقوله تعالى: ﴿**فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ** (15) **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ**﴾ [فصلت: 15-16].

الدليل الثالث:

إنّ تقادم أفعال المُعذّبين في عصرنا الحالي لم تسقط الملاحقة والمحاسبة، وهذا التقادم يصل إلى عقدين أو ثلاثة عقود أو أكثر، كما هو في حالات حيّة، ومنها محاكمة رئيس يوغسلافيا (سابقا) "سلوبودان ميلوسوفيتش" في سنة 2002 أمام محكمة خاصة بجرائم الحرب في لاهاي للنظر في الجرائم التي ارتكبت خلال الحرب اليوغسلافية في تسعينيات القرن الماضي. حيث وُجّهتْ إليه عشرات التهم بارتكاب جرائم حرب وجرائم ضدّ الإنسانية وجرائم إبادة، واستمرت المحاكمة حتى وفاته بسجنه في مارس/آذار 2006. ومُحاكمة رئيس تشاد السابق حسين حبري الذي حوكم بالسجن المؤبد بتهم ارتكاب جرائم حرب وجرائم ضدّ الإنسانية خلال فترة حكمه بين عامي 1982 و1990 التي قتل خلالها أربعين ألف شخص، وفق معارضين ومنظمات حقوقية دولية. ومحاكمة القائد الصربي "رادوفان كاراديتش" الملقّب بـ"سفّاح البوسنة" الذي حكم عليه في 2016 بالسجن لمدة أربعين عاما[2]...

وهذه الجزاء الدنيوي لا يمنع عنهم عذاب الآخرة[3] الذي هو جنس من عذاب الدّنيا، بناءً على قاعدة "الجزاء من جِنْس العمل": جزاءً وِفَاقًا، وهو ما أُبيّنه في الدليل التالي.

وهذا الدليل والذي قبله إنّما هو ضربٌ من دليل العمل، فالأوّل دليل بعيد وهو دليل القدامى، والثاني دليل قريب وهو دليل المعاصرين الذين شاهدنا محاكماتهم الجنائية رغم مرور السنين والعقود، وهذا الدليل كذلك دليلٌ تَجلّى فيه وعيدُ الله بتعذيبِ المعذّبين المستبدين والمجرمين، وبَرَزَ فيه وعدُهُ بتبشير المظلومين المعذبين بأنّهم منصورون ولو بعد حين، وهو ما يُحفّزهم على دفع التعذيب أو تداعياته، إذا هو حصل وأصبح واقعا لا يُرفع، ويُحفّز كذلك آخرين ليتسبّبوا في هذا الفعل العظيم في مقارعة المُعذِّبين والمنافحة عن المُعذَّبين، فيحصل لهم أجر التسبّب في منعه بخلاف أجر التسبّب في حدوثه، كما هو منهج إبليس ومن كان من ذريّته الخَلقيّة أو ذريّته البشريّة التي على منهجه السّقيم وإغوائه الذميم.

الدليل الرابع:

إنّ عذاب الآخرة جَزَاءٌ من جِنْس تعذيب الدّنيا ومن عُموم المعصية الدّنيويّة، كالمعصية المالية بافتكاك أراضي النّاس ظُلمًا، وحبسهم والنيْل من أعراضهم والتنكيل بهم في معاشهم ومعادهم، وأرضهم وبحرهم، وكذلك معاصي ترك الصلوات والزكوات والاحتجاجات والدفوعات في عالم السياسات والمدنيات والحقوق والحريات، بما يكون تكليفًا بحسبه.

ولذلك يُعَذَّب في الآخرة من كان يُعذِّب النّاس في الدّنيا، بل من كان يُعذِّب حيوانًا:

قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النّاسَ في الدُّنْيا[4]**».

وقال: «**دَخَلَتِ امْرَأَةُ النّارَ في هِرَّةٍ رَبَطَتْها، فَلَمْ تُطْعِمْها، ولَمْ تَدَعْها تَأْكُلُ مِن خَشاشِ الأرْضِ[5]**».

ونفسُ أصلِ الأَوْلَى والأَحْرى الذي ذكرناه في الأصول يَنطبِقُ على تعذيب الإنسان والحيوان، فإذا كان تعذيبُ الحيوان مآله النّار، فإنّ تعذيب الإنسان يكون مآله النّار من باب أَوْلى وأَحْرى.

وهنالك لفتة بديعة في الحديث، وهي عبارة "النّار" في الآخرة التي تُشير إلى النّار في الدّنيا، فالنّار الجهنميّة هي من جِنْس النّار الدنيوية في الإحراق الحسّي الفيزيائي والإحراق الرمزي المعنوي، وفي تحريق الأشجار والأفكار والقِيَم والإعمار... وكل هذا مدُلّل عليه بمفهومنا الكلّي للوجود الكوني بأطواره الثلاثة وبدوائر أخرى جديرة بالاعتبار والاستذكار والاستدلال والإعمال والتأويل والتنزيل....

وهو ما يَندرج تحت معنى المعنى أو مقصد المقصد الذي نُحقّق النظر فيه منذ زمن غير قليل، ونخرج منه أحيانا ما بدا زهوه واستوى إلى حدّ ثمره.

والربط بين الآخرة والدّنيا في عذاب المعذّبين هو الدليل الموالي:

الدليل الخامس:

وصلُ الآخرة بالأُولى بناءً على وضع الخَلْق، وهو الثلاثية الكونية التي حُقِّق النظر فيها واعتبارها إطارا مرجعيا كلّيا لأفعال الدّنيا، ومنها فعلُ التعذيب والتخطيط له والتسبّب فيه والتحريض عليه... وعلى كلّ عاقلٍ أن يتدبّر هذا لينجو من عذاب الله وعذابات الدّنيا في خزي الضمير وانفكاك النّفس وشرود البال والتيه العقلي والارتعاش العضوي والترك العائلي بموجب ما تسبّب فيه لمن عذّبه وشارك في عذابه الجسدي والنفسي والعائلي والمهني... يا ليت قومي يعلمون...

ومفادُ هذا الوصل أنّ التعذيب لا يَسقُطُ إطلاقًا في الدّنيا ولا في الآخرة، لا يَسقُطُ في الدّنيا بموجب أحكام الشّريعة التي بَيّنت أحكامه وأحواله وما يَلزم منه من التقنين والتنفيذ والتقاضي والضغط المدني والحقوقي... ولا يَسقط في الآخرة بموجب إرادة الخالق الجزائية التي يُجازي بها الظالمين الذين عذّبوا غيرهم ونكّلوا بهم، وبموجب إرادته الخلقية التي خُلِق فيها الإنسان ليكون كريمًا ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾ [الإسراء: 70]، ولكي لا يُعَذِّب ولا يُعَذَّب، وبذلك تتكامل إرادات الله الثلاثة، إرادة خلقية وإرادة جزائية وإرادة تشريعية تكليفية (الأمر والنهي، أي الأمر بالكرامة وحفظ الحقوق والنهي عن الإهانة ودوس الحقوق وتغليظ تحريم التعذيب...)، وهو ما عبّرنا عنه باجتماع العقيدة والشريعة في التأصيل للتقادم الذي لا يُسقط جريمة التعذيب، ضمن الأدلة السابقة، وبأدلة أخرى وإفادات دقيقة أخرى، قد نعود إليها في المدارسة الجديدة للعقيدة الموصولة بالشريعة، أحكامًا ومقاصدًا، نظرًا وعملًا.

الختام:

لست أدري لماذا لا يُجْمَعُ بين العقيدة والشّريعة في منع التعذيب ودرء عقوباته في الدّنيا والآخرة؟ ولماذا لا يَحرص المُسلم على نجاته من عذاب جهنّم من هذه المعصية التعذيبية، كما يتحرّى من معصية ترك صلاته وصوم شهره. إنّ هذا التفريق انفصامٌ نَكِدٌ وفَهمٌ مريض وانحراف جلل مؤذنٌ بخسارة كبرى قد لا يَعبأ بها من عَذَّبَ غيره بالمباشرة أو التسبّب أو باللامبالاة في البيان والتوعية وفعل المُمكن بحسب الوسع وبموجب الصفة وذمّتها الشّرعيّة والأخلاقيّة والقانونيّة والوجوديّة. فاعْتَبِرُوا يا أهل الله وعباده، وإيّاكم ومُتابعةَ إبليس وتعذيب النّاس والسكوت عن ذلك.